

التحرير والتنوير

هذه الجملة بدل اشتمال من مضمون جملة (وينصرك اﷻ نصرا عزيزا) . وحصل منها الانتقال إلى ذكر حظ المسلمين من هذا الفتح فإن المؤمنين هم جنود اﷻ الذين قد نصر النبي صلى اﷺ عليه وسلم بهم كما قال تعالى (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) فكان في ذكر عناية اﷻ بإصلاح نفوسهم وإذهاب خواطر الشيطان عنهم وإلهامهم إلى الحق في ثبات عزمهم وقرارة إيمانهم تكوين لأسباب نصر النبي صلى اﷺ عليه وسلم والفتح الموعود به ليندفعوا حين يستنفروهم إلى العدو بقلوب ثابتة ألا ترى أن المؤمنين تبلبت نفوسهم من صلح الحديبية إذ انصرفوا عقبه عن دخول مكة بعد أن جاؤوا للعمرة بعدد عديد حسبوه لا يغلب وأنهم إن أرادهم العدو بسوء أو صدهم عن قصدهم قابلوه فانتصروا عليه وأنهم يدخلون مكة قسرا . وقد تكلموا في تسمية ما حل بهم يومئذ فتحا كما علمت مما تقدم فلما بين لهم الرسول صلى اﷺ عليه وسلم ما فيه من الخير اطمأنت نفوسهم بعد الاضطراب ورسخ يقينهم بعد خواطر الشك فلولا ذلك الاطمئنان والرسوخ لبقوا كاسفي البال شديدي اللبال فذلك الاطمئنان هو الذي سماه اﷻ بالسكينة وسمي إحداثة في نفوسهم إنزالا للسكينة في قلوبهم فكان النصر مشتملا على أشياء من أهمها إنزال السكينة وكان إنزال السكينة بالنسبة إلى هذا النصر نظير التأليف بين قلوب المؤمنين مع اختلاف قبائلهم وما كان بينهما من الأمن في الجاهلية بالنسبة للنصر الذي في قوله تعالى (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم) . وإنزالها : إيقاعها في العقل والنفوس وخلق أسبابها الجوهرية والعارضة وأطلق على ذلك الإيقاع فعل الإنزال تشريفاً لذلك الوجدان بأنه كالشيء الذي هو مكان مرتفع فوق الناس فألقي إلى قلوب الناس وتلك رفعة تخيلية مراد بها شرف ما أثبتت له على طريقة التخيلية . ولما كان من عواقب تلك السكينة أنها كانت سببا لزوال ما يلقيه الشيطان في نفوسهم من التأويل لوعد اﷻ إياهم بالنصر على غير ظاهره وحمله على النصر المعنوي لاستبعادهم أن يكون ذلك فتحا فلما أنزل اﷻ عليهم السكينة اطمأنت نفوسهم فزال ما خامرها وأيقنوا أنه وعد اﷻ وأنه واقع فانقشع عنهم ما يوشك أن يشكك بعضهم فيلتحق بالمنافقين الطائنين باﷻ ظن السوء فإن زيادة الأدلة تؤثر رسوخ المستدل عليه في العقل وقوة التصديق . وهذا اصطلاح شائع في القرآن وجعل ذلك الازدياد كالعلة لإنزال السكينة في قلوبهم لأن اﷻ علم أن السكينة إذا حصلت في قلوبهم رسخ إيمانهم فعومل المعلوم حصوله من الفعل معاملة العلة وأدخل عليه حرف التعليل وهو لام كي وجعلت قوة الإيمان بمنزلة إيمان آخر دخل على الإيمان الأسبق لأن الواحد من أفراد الجنس إذا انضم إلى أفراد آخر زادها قوة فلذلك علق

بالإيمان طرف (مع) في قوله (مع إيمانهم) فكان في ذلك الحادث خير عظيم لهم كما كان فيه خير للنبي صلى الله عليه وسلم بأن كان سببا لتشريفه بالمغفرة العامة وإتمام النعمة عليه ولهدايته صراطا مستقيما ولنصره نصرا عزيزا فأعظم به حدثا أعقب هذا الخير للرسول صلى الله عليه وسلم ولأصحابه .

(و جنود السماوات والأرض وكان الله عليهما حكيما [4]) تذييل للكلام السابق لأنه أفاد أن لا عجب في أن يفتح الله لك فتحا عظيما وينصرك على أقوام كثيرين أشداء نصرا صحبه إنزال السكينة في قلوب المؤمنين بعد أن خامرهم الفشل وانكسار الخواطر فأن من يملك جميع وسائل النصر وله القوة القاهرة في السماوات والأرض وما هذا نصر إلا بعض مما من القوة والقهر .

والواو اعتراضية وجملة التذييل معترضة بين جملة (ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم) وبين متعلقها وهو (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات) الآية .

وأطلق على أسباب النصر الجنود تشبيها لأسباب النصر بالجنود التي تقاتل وتنتصر . إشارة التذييل بجملة (المؤمنين قلوب في السكينة أنزل الذي هو) جملة تعقيب وفي A E إلى أن المؤمنين من جنود الله وأن إنزال السكينة في قلوبهم تشديد لعزائمهم فتخصيصهم بالذكر قبل هذا العموم وبعده تنويه بشأنهم ويومئ إلى ذلك قوله بعد (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات) الآية